

إبراهيم باشا
نشاطه العسكري ودوره السياسي والإداري
1789 - 1848

رسالة تقدم بها الطالب
ثعبان حسب الله علوان الشمري

إلى مجلس كلية التربية / جامعة ديالى وهي جزء من
متطلبات نيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث

بإشراف
الأستاذ الدكتور
صباح مهدي رميض

المبحث الأول

إبراهيم باشا - مرجعيات النسب ومراحل النشأة الأولى

نسبه وولادته

أجمعت المصادر على ان أسرة إبراهيم باشا كان موطنها في القولة (١) بالرومي (مقدونيا) القريبة من حدود ألبانيا (٢) ، ذات اقتصاد محدود وخلفيات اجتماعية بسيطة (٣).

نشأ والده محمد علي يتيم الأب وهو في الرابعة من عمره ، ولم تمض ست سنوات على وفاة والده حتى توفيت والدته أيضاً (٤) ، وبذلك أهتم بأمره عمه طوسون أغا متسلم قولة واعتنى بتربيته ، لكنه سرعان ما فقد بوفاته فتولى أمره صديقاً قديماً لعائلته يدعى شورجي قولة أي حاكم قولة فعني بتربيته وأشركه مع ولده (٥) .

أظهر محمد علي منذ بدء نشأته فراسة الأبطال وحكمة الكهول ، ولم يبلغ الثامنة عشر من عمره حتى نال رتبة بلوك باشي (٦) ، وتزوج بإحدى قريبات مربيه ، فرزق منها خمسة أبناء ثلاثة ذكور وبناتان وهم : إبراهيم وطوسون وإسماعيل ونازلي وتوحيدة (٧) .

(١) يوسف أضاف ، دليل مصر ، المطبعة العمومية ، مصر ، ١٩٨٠ ، ص ١٣٣ ؛ عبد الرحمن زكي إبراهيم باشا ١٧٨٩ - ١٨٤٨ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٥ .

(٢) احمد صادق سعد ، ألبانيا حتى ١٨٣٠ ، مجلة دراسات عربية ، العدد الخامس ، السنة ١٦ ، ١٩٨١ ، ص ١٠٨ ؛ مؤلف مجهول ، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا في سوريا ، تحقيق احمد غسان سباتو ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨١ ، ص ١١ .

(٣) احمد صادق سعد ، المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٤) الياس الأيوبي ، محمد علي ، سيرته واعماله وآثاره ، مطبعة الهلال ، مصر ، ١٩٢٣ ، ص ١١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١١ .

(٦) يوسف أضاف ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ ؛ هند اسكندر عمون ، تاريخ مصر ، الطبعة الثانية ، مطبعة المعارف ، مصر ، ١٩١٣ ، ص ٢٦١ .

(٧) بيير كريبيتس ، إبراهيم باشا ، ترجمة محمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، ص ١٥ .

ومما تجدر الإشارة إليه ان محمد علي تزوج امرأتين تدعى الأولى أمنية هانم والثانية ماه دروان هانم (١) ، وفي سنة ١٧٨٩ رزق محمد علي باشا من زوجته الأولى أمنية هانم بنت علي باشا بمصرلي أبنة الأكبر إبراهيم الذي ولد في قرية نصرتلي التابعة لمقاطعة دراما في مقدونيا ، والداخلة وقتئذ في الولايات العثمانية (٢) ، وكانت والدة إبراهيم مثلاً كريماً للأُم الملتزمة أدت إلى ربط وشائج المحبة والقربى بين حاكم نبيل ، وجندي شجاع ، وبزواجه منها بدأت مرحلة جديدة في حياة محمد علي (٣) ، وقد بذلت جهوداً سخية في تربية ولدها إبراهيم رغم ان مرض السرطان كان متفشياً في القولة وقت مولده (٤) .

كانت هذه المرحلة خطيرة التأثير في تكوين ونشأة الطفل الصغير (٥) ، إذ كان إبراهيم عربي النشأة والعاطفة ، وقد أكد ذلك بقوله ((انا لست تركياً فاني جئت مصر صبياً ومنذ ذلك مصرتني شمسها وغيرت دمي وجعلته دماً عربياً)) (٦) .

أعلن محمد علي تطوعه في الحملة التي قادها مصطفى باشا ضد الفرنسيين في مصر وأوكلت له مهمة قيادة (٣٠٠) جندياً ألبانياً ، وفي أعقاب نجاحه في مهمته هذه رقي إلى رتبة البكباشي (٧) ، وبعد توطيد مركزه في مصر أرسل في طلب ولديه

(١) جميل خانكي ، أعلام النهضة الحديثة (ابراهيم باشا) ، مجلة الكتاب ، ج ٩ ، مج ٦ ، السنة الثالثة ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ٥٩٥ .

(٢) Henery Dodwell , The Founder of Modern Egypt A study of Muhammad Ali ,Cambridge at the University press , London , ١٩٣١ , P . ٤٧ .

(٣) بنت الشاطي ، امرأة في حياة بطل ، مجلة الكتاب ، ج ٩ ، مج ٦ ، السنة الثالثة ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ٥٩١ .

(٤) بيير كريبيتس ، المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٥) بنت الشاطي ، المصدر السابق ، ص ٥٨٩ .

(٦) محمد جميل بيهم ، الحلقة المفقودة في تاريخ العرب ، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٠ ، ص ٣٣ ؛ خير الدين الزركلي ، قاموس الأعلام ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٦٦ .

(٧) هند اسكندر عمون ، المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

ولديه إبراهيم وطوسون سنة ١٨٠٥ ، كما أرسل إلى زوجته وأبنائه الصغار إسماعيل وشقيقتيه سنة ١٨٠٩^(١).

كانت لنجاحات محمد علي باشا أثرها الواضح في تطور مسيرته العسكرية والسياسية في مصر ، الأمر الذي أثار حقد الحاقدين وقدموا دعواتهم المغرضة حين وجهوا بعض ألتهم وقالوا ان الرهينة السياسية التي بقيت عند القبطان باشا لم يكن الابن الحقيقي لمحمد علي باشا ، بل كان متبناه وهذا إدعاء لا يؤيده دليل قاطع^(٢) ، بل ان هناك أدلة أثبتت ان إبراهيم هو الابن الأكبر لمحمد علي منها :

١. عبد الرحمن الجبرتي^(٣) المعروف ببغضه لمحمد علي وإبراهيم قد سمع بهذه الدعاية ولم يعمل على نشرها إذا كان ذلك الأمر صحيحاً .
٢. ان السفير النمساوي فون أسترومر (**Von Astromer**) يذكر في تقرير له كتبه في سنة ١٨٠٦ حين قال ((ان إبراهيم باشا هو الابن الأكبر لمحمد علي)) وكان مركز هذا السفير يمكنه من معرفة الحقائق والتثبت من صحتها ، لان روزتي (**Rosetti**) ممثله في مصر كان يعرف هذا البلد أكثر مما يعرفه أي أجنبي آخر^(٤) .

(١) محمد ثابت وآخرون ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الأول ، العدد الأول ، ١٩٣٣ ، ص ٣٢ ؛ شمس الدين سامي ، قاموس الأعلام ، مطبعة مهرا ، استانبول ، ١٣٠٦ هـ ، ص ٥٥٦ .

(٢) بيير كريبيتس ، المصدر السابق ، ص ٥ .

(٣) ولد عبد الرحمن الجبرتي في بلدة جبرت في بلاد الحبشة وكان جد هذه الأسرة رجل حبشي اسمه زين الدين وكان ينسب نفسه إلى مسلم بن عقيل بن أبي طالب وقد نزح زين الدين الجبرتي إلى مصر نحو سنة ١٦٠٠م بعد ان قام في مكة زمناً ودخل الأزهر وتولى مشيخة رواق الجبريتية وأعقبه ابنه شمس الدين الذي انجب نور الدين الجبرتي والد حسن الجبرتي الذي انجب المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ومن اشهر كتبه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" في عدة مجلدات ، لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٧ ، القاهرة ، ص ١٨٠ .

(٤) بيير كريبيتس ، المصدر السابق ، ص ٦ .

٣. ذهب فريق آخر من المختصين وأصحاب الغرض أبعد من ذلك فقالوا ان الوالي لم يرزق بولد قط ، في حين انه رزق خمسة أطفال ثلاثة ذكور وبنتان اثنتان (١) .

٤. الخطاب الذي كتبه الباشا إلى الباب العالي بتاريخ ١٦ كانون الثاني ١٨١٢ يدافع فيه عن نفسه من تهمة وجهها له السلطان ، وهي توانيه في القيام ببعض واجباته وقد جاء في هذا الدفاع ما يلي : ((سأبين لمولاي وولي نعمتي بإيجاز مبلغ إخلاصي له ، لقد رزقني الله ثلاثة أبناء هم أحب إلي ناظري بل من حياتي)) ، تلك اللهجة التي كتب بها الخطاب لا تترك مجالاً للظن في ان إبراهيم هو ابن محمد علي (٢) .

٥. ودليل آخر يؤكد على ان إبراهيم ولدأً لمحمد علي ، كما ورد ذلك في كتاب (بلادي تجديد مصر محمد علي) تأليف الأميرة شويكار المصرية وهي من سلالة محمد علي ، وقد جاء في هذا الكتاب : ان حاكم برفستا أراد ان يظهر اعترافه بفضل محمد علي ، لما أدى له من خدمات ومنحه رتبة بلوك باشي وزوجه من قريبة له ثرية كان يكفلها ، وقد رزق محمد من زوجته خمسة أبناء ثلاثة ذكور وبنتين وهم إبراهيم الأكبر وطوسون وإسماعيل ونازلي وتوحيدة (٣) .

٦. من الدلائل الأخرى التي تؤيد ذلك ، كانت حكومة الباب العالي تعلم حق العلم ان إبراهيم هو ابن محمد علي ، ولذلك لما اختلت قوى محمد علي العقلية في ٧ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٤٨ ، عين إبراهيم على الفور والياً على مصر (٤) .

(١) أدوار جوان ، مصر في القرن التاسع عشر محمد علي وإبراهيم باشا ، ترجمة محمد مسعود ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٣١ ، ص ٣٠٣ .

(٢) بيبير كريبيتس ، المصدر السابق ، ص ١١-١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥ ؛ الياس الأيوبي ، المصدر السابق ، ص ١٦ ؛ أدوار جوان ، المصدر السابق ، ص ٣٠٢ ؛ شمس الدين سامي ، المصدر السابق ، ص ٥٥٨ .

(٤) بيبير كريبيتس ، المصدر السابق ، ص ١٧ ؛ عبد الكريم غرابية ، تاريخ العرب الحديث ، المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٨٦ ؛ عبد الرحمن الرفاعي ، عصر محمد علي ، الطبعة الثالثة ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ، ص ٦٧٢ .

وفي ضوء ما ورد أعلاه يمكن رد الشكوك في تبني محمد علي باشا إذ إن إبراهيم كان يتمتع بمواهب القوة والذكاء والطموح ، وهذا مما زاد الحسد والبغضاء في نفوس هؤلاء القادة ورجال السياسة ^(١) ، وكان مركزه قد أفاضهم بعد ان تولى قيادة الحملة في مصر عندما كانت الحملة الفرنسية ضاربة أطنابها ، وفي أعقاب ذلك صدر الأمر بتعيين محمد علي والياً على مصر سنة ١٨٠٥ ^(٢) ، وقد أراد الوشاة إيجاد ثغرة بينه وبين ابنه وتوسيع هذه الهوة بينهم ، إلا إن إبراهيم استطاع تنفيذ كل أوامر أبيه في كل المواقف والمعارك ، وهذا الأمر من الصفات النبيلة التي زرعتها محمد علي في نفوس أبنائه وبالأخص إبراهيم ^(٣) .

صفاته وتربيته :

امتزجت تربية إبراهيم باشا بصفات وراثية مكتسبة ، وانعكست تلك على تجاربه اليومية والعسكرية التي برز بها كقائد عسكري ، حين وصف أحد ((المؤرخين إبراهيم بأنه أحسن أخوته وأشجعهم وأقدرهم ، كان متوسط القوام ، ممتلئ البدن ، أشهل العينين ، مستطيل الوجه ، أجش الصوت ، لا يهاب الموت)) ^(٤) محباً لمعيته من جنده ، جاعلاً نفسه في الأسفار والحرب كواحد منهم ، فكانوا يخضعون له تعظيماً ورمزاً لهم ^(٥) ، ومن صفاته المؤثرة ، الشجاعة وحب النظام ، وصراحته في تطبيق قواعده ، حين كان يجمع صفات الشجاعة والذكاء الحاد وصدق النظر ^(٦) ، ميالاً إلى البساطة وعدم التكلف

(١) بنت الشاطئ ، امرأة في حياة بطل ، ص ٥٨٩ ؛ بيير كريبس ، المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٢) هند اسكندر ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

(٣) أدوار جوان ، المصدر السابق ، ص ٣٠٢ .

(٤) جميل خانكي ، أعلام النهضة الحديثة (إبراهيم باشا) ، ص ٥٩٥ ؛

H.DE Vaugany , Histore de LEgypte de puls Les Lemps Les plus regules jusous dosjours , paris , ١٨٨٥ , p.٣٨٩ .

(٥) اسكندر ايكاريوس ، المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية ، حمص ، ١٩١٠ ، ص ١٢٦ .

(٦) عبد الرحمن الرفاعي ، عصر محمد علي ، ص ٦٦٨ .

ويظهر ذلك في مشاركة جنده في السراء والضراء ، وقد أظهر تفوقاً واضح المعالم في معرفة الفنون القتالية وبرز شاباً في مصاف أبسل قواد عصره (١) .

ووصف بأنه ((شديد البأس والنخوة ، لا يبالي ولا يلين جانبه ولا يعطي بناره سعيد الطالع سعيد في اختياراته (٢) ، وقد وصف بأنه جهوري الصوت ، مؤثراً في سامعيه وفيه نبرة الحدة على عكس ولده الذي عرف بالسماحة والبشاشة)) (٣) ، وقد قال عنه انطوان كتافاكو (Antown Katafako) قنصل النمسا في عكا أثناء حكم إبراهيم باشا لسوريا ترجمه : ((إن جميع من في سوريا كانوا قد ملّوا ظلم الحكم الماضي ، واصبحوا متشوقين لرؤية الجيوش المصرية ليحكم وبحسب النظام والعدالة والمساواة التي أشتهر بها محمد علي ، ولكنهم لم يروا من إبراهيم باشا سوى مظاهر المروعة والحلم والشهامة وهي خصال شخصية تدل على أخلاق راقية)) (٤) .

وكذلك وصفه البارون (بوالكونت) (٥) الذي اجتمع به بالقرب من طرسوس بالأناضول في اب (أغسطس) سنة ١٨٣٣ عقب انتصاره في معركة قونية وأستطلع آراءه وأفكاره وكتب عنه ((أنه بلغ الأربعين وهو قوي البنية قصير القامة ، كبير

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٦٨ .

(٢) هند اسكندر عمون ، المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(٣) ابراهيم أفندي ، كتاب ابراهيم النجار (١٨٢٢ - ١٨٦٤) ، بيروت ، ١٢٧٢ ، ص ٣١ .

(٤) بولس مسعد ، في غمار المعارك ، مجلة الكتاب ، ج ٩ ، مج ٦ ، السنة الثالثة ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ٥٢٣ .

(٥) شارل جوزيف ادمون بارون دي بوالكنت Charles – Joseph Edmond Baron de Boleconte التحق بخدمة وزارة الخارجية الفرنسية في سنة ١٨١٤ واصبح سياسياً وكاتباً ، وتولى بعض المناصب في الوزارة المذكورة وانتدبته الحكومة سنة ١٨٣٣ في مهمة لدى محمد علي لاقتناع سحب قوات ابراهيم باشا من الأناضول لتمهيد عقد الصلح بين الدول وبين محمد علي واخيراً نجحت مساعيه في عقد الصلح كوتاهية في نيسان (مايس) ١٨٣٣ ، عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، ص ٦٦٩ ؛ محمد فؤاد شكري ، بناء دولة محمد علي ، ط ١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢١٣ .

الرأس ذكي النظر ، نشيط في كل حركاته قصير الذراعين ، وقد لمحت روح الحماسة بادية في حديثه ولهجته ، وهو شغف بالحروب)) (١) .

امتاز إبراهيم باشا بقدرته على كيفية اختيار الرجال ، فهو لا يتوانى عن ان يروضهم ويداعبهم ويقترب إليهم إذا أحتاج الأمر ، وهو الذي عرف بشدة الحرص والحذر ، وكان قاسياً ولا سيما ان السياسة لم تكن تملّي عليه الحلم والعفو ، وكان أحياناً لا يصغي إلى النصيحة ، اللهم إلا إذا وجد نفسه في مأزق صعب ، ووقع في أزمة خطيرة (٢) .

وكان كثير التدخين ، يتناول القهوة كثيراً ، وكانت حياته عموماً معتدلة منظمة معروفة ببساطتها (٣) ، وكان على غرار أبيه في إجلال العدو والمغلوب والعطف عليه (٤) ، ويقول فيليمن (Villemain) في كتابه (Preface De Lascaris) () انه أتخذ الإنسانية باعتبارها من تكتيكات أوربا ، فلم يحرق القرى ولم يذبح المغلوبين ، لان فيه نوعاً من الرحمة الحديثة فدعا اناس بنصيحة بها باعتبارها وسيلة للنصر)) (٥) .

عرف إبراهيم باشا بدفاعه عن حق المساواة بين المسلمين واليهود والنصارى ، وعدم التعصب الديني ، وهي صفة لم تكن معروفة لدى البشوات العثمانيين (٦) ، وقد أمر بالتسامح في المعاملة عندما دخلت الجيوش المصرية ولايتا صيدا وبييت

(١) عبد الرحمن الرافي ، المصدر السابق ، ص ٦٦٩ .

(٢) عبد الرحمن زكي ، ابراهيم باشا ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

(٣) محمد احمد حسونة ، (ابراهيم باشا في اليونان) مجموعة أبحاث ودراسات تاريخية في ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا (١٨٤٨ - ١٩٤٨) ، ص ٤٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

(٦) فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديثة ، ترجمة عفيفة البستاني ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧١ ، ص ١٣٤ .

المقدس ^(١) ، وامتاز إبراهيم باشا بعدله وتسامحه وحياديته ، وكل تلك الصفات انعكست على سياسته العامة ^(٢) .

وحافظ إبراهيم على احترامه وإجلاله لمقام أبيه ، رغم ما حققه من زهو وانتصارات كبيرة حتى انه لم يسمح لنفسه ان يشرب الدخان في حضرته ، ووصف بأنه شفوفاً رحوماً ^(٣) ، فعندما أُسر زعيم الوهابيين عبد الله بن مسعود ، كرمه وعامله معاملة تليق بمقامه ، ولما أُسر عبد الله باشا والي عكا أحسن معاملته وأعز سمعته ، والأمر يقال في أسر الصدر الأعظم رشيد باشا وزان إبراهيم رأسه بهالة من الاحترام ^(٤) ، ولعل مرجع ذلك لوالده الذي رباه تربية وثقافة اسلامية وعلمه اللغة العربية ^(٥) .

هكذا اجتمعت في إبراهيم باشا صفات الشجاعة النادرة ، والقوة البدنية والهدوء وضبط النفس في الأوقات الحرجة ^(٦) ، فضلاً عن كونه ذكياً حصبياً ، وعرف ان الأمم الشرقية لا تنهض إلا إذا اقتبست خبرة علماء أوربا وقوادها ^(٧) ، ونتيجة للخصال والمزايا التي تمتع بها إبراهيم باشا صار قريباً من ضباطه وجنده ، كونه أدرك الطباع البشرية وأحس بقيمتها ، كما جعل شخصيته قدوة لهم ، وفضل دائماً ان يكون في طليعة جيشه ليشرف بنفسه على سير المعارك ^(٨) ، وتمثل بعقلية ويقظة دائمتين إذ لم يغفل عن رقابة عدوه ^(٩) ، هكذا توسمت واستقرت في قرارة نفسه ليكون القائد الذي يحتذى به في صنع

(١) حبيب جاماتي ، ابراهيم في الميدان ، دار الهلال ، مصر ، ١٩٣٤ ، ص ٣٧ ؛ سليمان أبو عز الدين ، ابراهيم باشا في سورية ، المطبعة العلمية ، بيروت ، ١٩٣٩ ، ص ٣١٣ .

(٢) Gabriel Enkiri , Ibrahim pacha “ ١٧٨٩ – ١٨٤٨ “ , Imprimerie Française , Le Caire , ١٩٤٨ , P.٢٨٩ .

(٣) عبد الرحمن الرافي ، المصدر السابق ، ص ٦٧١ .

(٤) عزيز خانكي ، رياحين ، مجلة الكتاب ، ج ٩ ، مج ٦ ، السنة الثالثة ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ٥٧٦ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٧٦ .

(٦) عبد الرحمن زكي ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٧) عبد الرحمن الرافي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، ج ٣ ، المطبعة الأولى ، ١٩٣٠ ، ص ٦٢٥ ؛ عبد الرحمن الرافي ، عصر محمد علي ، ص ٦٦٦ .

(٨) عبد الرحمن زكي ، عبقرية قائد ، مجلة الكتاب ، ج ٩ ، مج ٦ ، السنة الثالثة ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ٤٩٧ .

(٩) بيير كريبيتس ، المصدر السابق ، ص ٧١ .

عقلية واسعة ناصعة الصواب وصنع فلسفة خاصة به ، وبفضل هذه الصفات أصبح إبراهيم باشا بهذا الطراز النادر من الرجال (١) .

أدى إبراهيم باشا دوراً هاماً في تاريخ مصر أبان عهد والده محمد علي ، وكان يلقب بيد محمد علي الحربية ، وفي الحق ان النجاح السياسي الذي أفرزه محمد علي لم يكن ليتحقق دون الأعمال الحربية التي قام بها إبراهيم (٢) .

يتضح مما تقدم ان محمد علي أشرك ابنه إبراهيم منذ صغره وعلمه على تحمل المسؤولية ، لذلك أناط به بعض الأعمال الإدارية والسياسية ، وكانت النتيجة ناجحة وبرهن على ذلك من خلال المعارك التي برز بها كقائد مميز من طراز خاص ، ويبدو ذلك لظهور نزعته أكثر من أبيه ، وهذا ما تمثل بتلك النزعة التي نادى بها دائماً ، أي النزعة القومية للعروبة ، على الرغم انه ليس عربياً ، ولكنه تعلم العربية والقران الكريم ، وأحس بنفسه مواطناً عربياً ومضطهداً من قبل السلطان العثماني ، ولذلك حارب العثمانيين في عقر دارهم ، ولو لا التكاليف الأوربي لاستطاع الدخول إلى عاصمة العثمانيين والقضاء عليهم وتكوين دولة عربية تحقق أحلامه ، ويفهم من ذلك ان إبراهيم باشا كانت رغباته وطموحاته واسعة اختلفت عن أبيه وأخوته الآخرين .

إبراهيم باشا فلسفته التعليمية والثقافية

عني محمد علي بتعليم وتهذيب ولده (٣) وتلقى تربية مثيلة لما تلقاه أبناء المشرق ، فهو ملم باللغات التركية والفارسية والفرنسية والعربية نطقاً وكتابة الأمر الذي جعله أكثر إحاطة بتاريخ المشرق الإسلامي (٤) ، فضلاً عن تلقيه مبادئ اللغة الفرنسية (٥) ، وبذلك كون لنفسه أرضية ثقافية واسعة كرسها لسياسة التعليم ، فنزع إلى اتخاذ التعليم إحدى الوسائل للارتقاء بمستوى الشعب ، وأهتم بصفة خاصة - عندما حمل عن أبيه

(١) كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، الجزء الاول ، ترجمة محمد مسعود ، الطبعة الثانية ، دار الموقف العربي للصحافة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ١٤٠ .

(٢) محمد ثابت وآخرون ، المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٣) هند اسكندر عمون ، المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(٤) كلوت بك ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ - ١٣٥ ؛ يوسف أصاف ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٥) عزيز خانكي ، المصدر السابق ، ص ٥٧٦ .

عبء الحكم - بافتتاح مكاتب لتعليم الناس أطلق عليها أسم (مكاتب الملة)^(١) ، وعلى نحو ما كان موجوداً في فرنسا وبريطانيا ، ولمكاتب الملة غرض جديد الهدف مخالف لغرض المدارس الابتدائية فليس الغرض منها أعداد التلاميذ للدراسة فقط ، بل الغرض منها توفير قسط من الثقافة لسواد الشعب^(٢) .

وجه محمد علي باشا في نهاية حزيران (يونيو) ١٨٢٩ ابنه إبراهيم باشا بإرسال أربعة تلاميذ في سن (١٢) سنة وثلاثة عشر آخرين أذكيا إلى بريطانيا لتعليم فنون القوة البحرية^(٣) ، وكان إبراهيم يتبع رأي والده بشأن ضرورة تعليم البنات فشحج تأسيس مدرسة البنات أنشأتها الإرسالية الانجلكانية^(٤) .

ظهرت مساهماته في خلق روح علمية جديدة والسير بالتربية إلى الأمام وذلك عندما أمر بإنشاء بعض المدارس الحديثة في مناطق مختلفة في كل من سوريا ولبنان^(٥) وعرفت باسم (المدارس الجهادية)^(٦) ، وأجبر الضباط والجنود على دراسة بعض العلوم الضرورية لهم كالهندسة وعلم المساحة^(٧) .

تولى إبراهيم باشا الأشراف على الوحدات العسكرية الجديدة من قبل أبيه وبدء يدرس مع مرؤوسيه ويتدرب على استعمال الأسلحة ويتعلم الحركات العسكرية كواحد من الطلبة

(١) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٩ - ١٤٤ .

(٣) أمين سامي باشا ، تقويم النيل ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٨ ، ص ٣٥٤ .

(٤) محمد عبد الغني ، بين السطور ، مجلة الكتاب ، ج ٩ ، مج ٦ ، السنة الثالثة ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ٦٢٩ .

(٥) احمد سراج الدين ، الحكومة التربوية وتطورها في سوريا ولبنان خلال القرن التاسع عشر ، مجلة الأبحاث الأبحاث ، ج ٣ ، السنة الرابعة ، بيروت ، ١٩٥١ ، ص ٣٢٧ .

(٦) كانت هذه المدارس تابعة لديوان الجهادية ، حيث كان الباعث الأول لإنشاء مثل هذه المدارس حريياً محضاً ، وكانت الصفة الحربية يغلب عليها ، وكذلك أسهمت هذه المدارس في خلق روح علمية جديدة والسير بالتربية قدماً نحو الأمام ، وقد خصص مرتبات شهرية لابناء الجنود الذين التحقوا بهذه مدارس ، احمد عبد الكريم ، المصدر السابق ، ص ٨٤ ، احمد سراج الدين ، المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٢٧ .

الذين يوجب عليهم الانضباط والالتزام^(١) ، ويشار إلى (سيف)^(٢) كان يمر ذات يوم هو ومن معه من الضباط فأخذ إبراهيم موقعه في أول الصف الذي يتفق مع قامته فأمتثل إبراهيم ولم ينبس ببنت شفة فضرب لغيره مثلاً في الطاعة والنظام^(٣) .

وأظهر اهتماماً في تأسيس دار الطباعة في لبنان سنة ١٨٣٤ ، وأسس أجهزة النظام التعليمي المدرسي المدني الجديد بشقيه الابتدائي والثانوي حين كان التعليم باللغة العربية ، وكان النظام المدرسي قائماً على الانضباط والتشديد على الوعي القومي^(٤) .

لم تنطع الروح الحربية الجريئة المغامرة على روح التعليم عند إبراهيم باشا ، وقد أولى عناية بالتعليم عناية كبيرة وأسس داراً للفنون تدرس فيها الفنون العالمية^(٥) ، وأكد على المباشرة في إرسال البعثات وجعلها أمراً ضرورياً وفضل ان يكونوا من صغار السن حتى يكون للبلاد نخبة من الشباب القادرين على توظيف ما تعلموه في مدارس أوروبا ومعاهدها في مجتمعهم الجديد^(٦) .

لقد ضرب إبراهيم باشا بيد من حديد على التعصب الطائفي الذي كان يبيده المسلمون تجاه الأجانب ، وأهل البلاد من المسيحيين ، وكان لموقفه هذا أثره الملحوظ

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ .

(٢) الكولنيل سيف فرنسي الأصل ولد في مدينة ليون سنة ١٧٧٨ ، واعتنق الإسلام وسمى نفسه سليمان وله الفضل في تأسيس الجند النظامي المصري تحت رعاية محمد علي وجاء إلى مصر سنة ١٨١٩ وتوفي سنة ١٨٦٠ وكان سليمان الفرنسي الذي يمثل رئيس أركان حرب إبراهيم باشا وقد أعطى له نصيب من الفخر في الحروب التي اشترك فيها ، مجلة الهلال ، الجزء الأول ، السنة ٣٥ ، ١٩٢٦ ، ص ٧٦ ؛ عمر الإسكندري وسليم حسن ، تاريخ الفتح العثماني الى قبيل الوقت الحاضر ، الطبعة الثالثة ، مصر ، ١٩١٩ ، ص ١٧٧ .

(٣) كريم ثابت ، محمد علي ، الطبعة الثانية ، مطبعة المعارق ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ٩٣ .

(٤) سيار كوكب علي الجميل ، تكوين العرب الحديث (١٥١٦ - ١٩١٦) ، الطبعة الأولى ، الموصل ، ١٩٩١ ، ص ٢٨٣ .

(٥) محمد عبد الغني ، المصدر السابق ، ص ٦٢٨ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٦٢٩ ؛ سعد إسماعيل ، تاريخ التربية والتعليم في مصر ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٣١٥ - ٣٤٨ .

في النشاط التربوي ، ولم يكتف بذلك بل تعداه إلى مساعدة الإرساليات التبشيرية الأجنبية في نشر التربية بين الذكور والإناث (١) ، وبذلك أظهر حماسه الشديدة في تجديد التعليم الحديث في ميادين تجديد الحياة الخاصة بالتلاميذ ، والتجديد في طرق التدريس ومناهج الدراسة (٢) .

وعلى الرغم من الظروف التي مر بها إبراهيم باشا إلا انه أظهر اهتماماً كبيراً بالتعليم حين أسس المدارس الابتدائية والثانوية في دمشق وحلب وإنطاكية ، وأسست هذه المدارس على المنهج المصري مع انضباط صارم (٣) ، وأمر الطلبة بارتداء البدلة الرسمية ، وأسكنهم الأقسام الداخلية وأطعمهم مجاناً (٤) ، وكانت رغبة إبراهيم بان يتحمل الأهالي قسطاً من النفقات لأشعارهم بأهمية الجانب التربوي والتعليم وأهميته المشتركة بين الأسرة والحكومة ، وقد لمس الأهالي فائدة المدارس ، وأقبلوا عليها واهتموا بها ، وعملوا كثيراً لتقدمها (٥) .

كل تلك الإجراءات أخرجت التعليم من طابعه التقليدي الديني إلى التحديث وبعثت نهضة علمية حديثة (٦) ، وزاد اهتمام إبراهيم باشا بإنشاء عدد من المكتبات ومنها الخاصة إذ سميت إحدى هذه المكتبات باسمه ، والتي أحتوت على ثمانية آلاف مجلد وفي مختلف الاختصاصات (٧) .

لا شك ان إبراهيم باشا استفاد من خبرة قواده الكبار ومن مرجعيات الكتب التاريخية المترجمة إلى اللغة العربية من التركية ، أو ممن كانوا يعرفون اللغة العربية

(١) احمد سراج الدين ، المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

(٢) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، ص ١٣٧ .

(٣) لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ ؛ احمد سراج الدين ، المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(٤) لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٥) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، ص ٤٩ ؛ سعيد إسماعيل ، المصدر السابق ، ص ٣٣٤ .

(٦) بشرى ناصر هاشم ، الإدارة المصرية في بلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٤٠) رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٣ ، ص ١٣٨ .

(٧) عبد الرحمن زكي ، هذه هي القاهرة ، الطبعة الثانية دار المستقبل ، مصر ، ١٩٤٣ ، ص ١٧٢ .

ويبدو ان ما ترجمه وأخرجه رفاة الطهطاوي ^(١) ، وتلاميذه في مدرسة الألسن الى اللغة العربية دوراً واضحاً في هذا الاتجاه ^(٢) علماً ان إبراهيم باشا كان مهتماً بسياسة التعريب ، إذ انشأ العديد من المدارس الرسمية للمسلمين حيث كانت لغة التدريس فيها العربية ^(٣) ، وشجع البعثات الدينية ، الأوروبية والأمريكية على الإقامة في بلاد الشام ^(٤) .

وكان لليسوعيين الفرنسيين بوجه خاص ولع شديد باستئناف نشاطهم فيها بعد الركود الذي لحق بهم منذ إلغاء طائفهم مؤقتاً بأمر البابا سنة ١٧٧٣ ^(٥) .
فالتعليم عند إبراهيم لم يكن فقط أداة لإمداد الحكومة بمن يلزمها من الموظفين ، أو بعبارة أخرى لم يكن فقط أداة لتخريج الزعماء والقادة ، بل هو أداة لترقية المجتمع والسير به نحو التقدم والازدهار ، ويرى بان لا يتم إلا بالتفاعل بين المدرسة والمجتمع ^(٦) ، وعند توليه حكم مصر بدأت صفحة جديدة في تاريخ التعليم في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حيث كان إبراهيم أكثر اختلاطاً بالأجانب من أبيه وأراه أكثر مرونة وميلاً إلى التجديد ^(٧) ، وقد أدخل إصلاحات شتى وفي ميادين مختلفة ، ولكن قصر

(١) ولد رفاة الطهطاوي في مدينة طهطا سنة ١٨٠١ وفيها تلقى علومه الأولى ، ثم أتم دراسته في الأزهر وبعد ذلك أرسل ليكون إماماً في الإسكندرية سنة ١٨٣٤ ويعتبر شيخ المترجمين في مطلع النهضة الحديثة فتعلم الفرنسية بعد إرساله مع البعثة التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا وعاد بعد ذلك مترجماً في المدرسة الفنية ثم أصبح مديراً لمدرسة الترجمة (الألسن فيما بعد) وقام بدور كبير في نشأة الصحيفة الرسمية (الوقائع المصرية) ؛ جمال الدين الشيال ، التاريخ والمؤرخون في مصر ، مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٤٥-٤٦ ؛ محمد شفيق غربال ، الموسوعة الميسرة ، الجزء الأول ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٨٧٣ .

(٢) جمال الدين الشيال ، المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٣) John Mar lowe , Arab Nationalism and British Imperialism A study in power politics , London , the cresst press , ١٩٦١ , p.٨ .

(٤) جمال الدين الشيال ، المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٥) جورج كيرك ، موجز تاريخ الشرق الأوسط ، ترجمة عمر الإسكندري ، دار الطباعة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٢٦ .

(٦) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، ص ٤٨ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

قصر مدة حكمه لم تمكنه من تنفيذ شيء مما رغب تنفيذه ، وما وقع في خلدته من تشكيل البعثات العلمية إلى أوروبا وتغيير شكل أقالمتها (١) ، وكان إبراهيم باشا يأخذ بنظر الاعتبار كل صغيرة بنفسه ، إذ كانت عنايته بالتعليم شديدة مستمرة ، وجاء في خطاب له إلى أبيه انه ((تولى بنفسه أمر فرز الأفندية الذين يعملون بالمجالس والدواوين . ولقد رأيت بنفسه حالة المدارس ، فشورى المدارس ليست سوى مكان يجتمع فيه الأعضاء في كل يوم ليتحدثوا إلى بعضهم ، فليس لديهم أي منهج يتهجونه في سبيل تنوير عقول الطلاب)) (٢) .

وكان صافي الذهن ، والدليل إقباله على التعليم طول حياته (٣) ، ولم يكن هدف إبراهيم باشا نشر التعليم ذاته فحسب ، بل أراد اتخاذه وسيلة لخدمة أهداف سياسية وعسكرية من خلال حرصه على غرس فكرة الشعور القومي في نفوس الطلبة (٤) .

زواجه

أقترن إبراهيم باشا بعدد من الزوجات هن على التوالي :

١ . خديجة برنجي قادن ورزق منها بالأمير محمد بك الذي ولد في سنة ١٨١٤ ، وتوفي في ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨١٩ (٥) .

٢ . شيوة كارقادن وقد رزق منها بالأمير أحمد رفعت باشا ، الذي ولد في ٨ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٣٥ ، وتوفي في ايار

(١) الياس الأيوبي ، تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (١٨٦٣-١٨٧٩) ، المجلد الأول ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ ، ص ١٧٩ .

(٢) احمد فؤاد الاهوائي ، جوانب نفس ، مجلة الكتاب ، ج ٩ ، مج ٦ ، السنة الثالثة ، مصر ، ص ٥٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٠٩ .

(٤) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد واحسان عباس ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٣٨ .

(٥) بنت الشاطئ ، امرأة في حياة بطل ، ص ٥٩٣ .

(مايو) سنة ١٨٥٧ في حادث سقوط قطار سكة حديد بكفر
الزيات .

٣ . خوشيار قادن وقد رزق منها بالخدويو إسماعيل ، الذي ولد في
(سراي المسافر خانة) في ليلة ١٢ من كانون الثاني (يناير)
سنة ١٨٣٠ ، واستولى على الأريكة الخديوية يوم ١٩ كانون الثاني
(يناير) في سراي أمر جيان باستانبول في آذار (مارس) سنة
١٨٩٥ (١) .

٤ . ألفت قادن وقد رزق منها بالأمير مصطفى بهجت ، الذي ولد في
القاهرة في ٢٢ شباط (فبراير) سنة ١٨٣٠ ، وتوفي في استانبول
في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٧٥ (٢) .

٥ . كلزار قادن ولم يرزق منها أولاداً .

٦ . سارة قادن ولم يرزق منها أولاداً ، وكان لإبراهيم باشا بنتان ، الأميرة
فاطمة والتي توفيت سنة ١٨٣٢ ، والأميرة أمينة التي توفيت ١٨٣٩
(٣) .

(١) ينظر الملحق رقم (١) ، ص ٢٠٠ .

(٢) بنت الشاطئ ، امرأة في حياة بطل ، ص ٥٩٤ - ٥٩٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ .

المبحث الثاني

إبراهيم باشا ونضوج شخصيته الاجتماعية وأثرها

في بدايات عمله الإداري والسياسي

بعد ان وطد والده محمد علي باشا حكمه في مصر عهد له بمهام عدة ، مارس منها شؤون الدولة وأعمالها الإدارية والحربية (١) ، وبعد موقعة المماليك الكبرى (٢) سنة ١٨١١ أرسله إلى الصعيد لجمع الضرائب ، فطرد المماليك وأخضع البدو وأشاع النظام والأمن في البلاد (٣) ، ثم عين حاكماً للوجه القبلي في السنوات ١٨١٣ و ١٨١٤ و ١٨١٥ (٤) ، ورافق إبراهيم أبيه في كثير من جولاته داخل مصر ، إذ رافقه عند زيارته إلى الإسكندرية للنظر في الأحكام والشكاوي والدعاوي (٥)

(١) عبد الرحمن زكي ، إبراهيم باشا ، ص ٥ ؛

Ferdinand Perrier , L'Asyrie sous Le Gourer De Mehemet Ali jusouen

١٨٤٠ , paris , ١٨٤٠

(٢) نظمت هذه الموقعة من قبل محمد علي باشا ضد المماليك في القاهرة بعد ان استمر معاداتهم لمحمد علي قام بمذبحة في شهر آذار (مارس) سنة ١٨١١ ومذبحة سنار بعد سنة وقضى عليهم قضاءً مبرماً وهرب عدد منهم جنوباً إلى السودان ، عبد الكريم غرابية ، تاريخ العرب الحديث ، المطبعة الأهلية للنشر ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٧٨ ؛ سيار كوكب علي الجميل ، المصدر السابق ، ص ٢٧٠ .

(٣) Meydan Larouss , Meydan Yayinevi , cild : ٦ , instaubul , ١٩٧٣ , P. ١٧٦ .

(٤) أداور جوان ، المصدر السابق ، ص ٥٩٣ .

(٥) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، الجزء السابع ، الطبعة الأولى ، لجنة البيان العربي ، ١٩٦٧ ، ص ٤٦٧ .

ولم يقتصر عمله على جمع المال فحسب بل اتسع ليشمل أيضاً إصلاح أحوال الزراعة التي خصص لها مبالغ طائلة عملاً بأوامر أبيه (١) .

وفي سنة (١٨١٣) عيّن إبراهيم باشا مأموراً لمساحة القطر المصري ، وشرع المساحون في العمل ومعهم (المعلم غالي) بصفة رئيس المساحين ، وقد بدأ بفك الالتزام (٢) فكانت تلك المساحة ناسخة لنظام حياة الأرض القائمة في مصر (٣) ، واسهم في الاستيلاء على معظم أراضي الالتزام ولاسيما أراضي المماليك ، والتي امتلكوها في أعقاب نزوحهم إلى الصعيد وبذلك لم يبق من أراضي الالتزام بالوجه القبلي إلا الندر اليسير (٤) ، وفي سنة (١٨١٤) سعى لوضع تسعيرة مخفضة لجميع أنواع التموين غير المحتكر ، مثل اللحم والسمن والجبن وشدد في ذلك بالتشكيك بتجار السوق السوداء وأصبحت أمور السوق في غاية التنظيم والاستقرار (٥) ، ثم عين والياً مؤقتاً لمصر سنة ١٨٢٠ فتمكن بحكمته من وضع حلاً لاستبدال المشايخ والعمد الذين أشاعوا الظلم بين الناس (٦) ، وبعد عودته من بلاد اليونان وبعد أداء واجبه ، فقد وصل إلى الإسكندرية في ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٢٨ ، ولم يحل اليوم السادس عشر من كانون الثاني (يناير) ١٨٢٩ حتى شرع في إصلاح

(١) بيبير كريبتس ، المصدر السابق ، ص ٩ .

(٢) يستخدم هذا النظام في جمع الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية من الفلاحين بموجبية يلزم الملتزم من الحكومة مساحة من الأراضي ليرفع عنها مبلغاً محدداً من المال سنوياً ثم يقوم بجباية أموال من الفلاحين عن أرضهم ، عبد العزيز نوار ، تاريخ العرب المعاصر مصر والعراق ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٩٣ .

(٣) محمد فؤاد شكري ، بناء دولة مصر ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٣٦ ؛ عبد الرحمن الجبرتي ، المصدر السابق ، ص ٤٨٢ .

(٤) احمد احمد الحتة ، جهود ابراهيم باشا في حرفة الزراعة والصناعة والتجارة ، مجموعة أبحاث ودراسات تاريخية في ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا (١٨٤٨-١٩٤٨) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٨٢ .

(٥) محمد صبيح ، كفاح شعب مصر في القرنين (١٩-٢٠) ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٦ ، ص ١٧٤ .

(٦) أدوار جوان ، المصدر السابق ، ص ٥٩٣ .

الحالة الإدارية في مديرية الشرقية ، اذ كان يطبق القانون الذي سنه والده ، وقد حمل إبراهيم باشا الكثير من العناء من والده (١) .

وقد أحاط إبراهيم باشا بتفاصيل الأعمال وكانت له فيها آراء سديدة ، وأظهر حمزاً ونشاطاً دالين على علو همته وحسن مستقبله (٢) ، وترأس إبراهيم باشا مجلس المشورة (٣) سنة (١٨٢٩) والذي تشكل من كبار موظفي الحكومة والعلماء وأعيان البلد وكان عدد أعضائه (١٤٦) عضواً بواقع (٢٣) من كبار الموظفين والعلماء و (٢٤) من مأموري الأقاليم و (٩٩) من كبار أعيان البلد (٤) .

وقرر مجلس المشورة بناء على التماس كتبة الديوان العالي ما عرضه رئيسه إبراهيم باشا وبناءً على ما تعلق به أراده محمد علي على ضرورة إنشاء مكتب لتعليم كتبة الديوان باللغتين العربية والتركية وأحوال الفلاحة (٥) ، وذكرت جريدة (الوقائع المصرية) نبأ انعقاد مجلس المشورة لأول مرة ، فقالت انه ((اجتمع عصر يوم (٢) أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٢٩ في قصر إبراهيم باشا (القصر العالي))) (٦) ، وعين (الشيخ مصطفى) مدرساً للغة العربية وانه كلما يتم تعليم عدد من كتبة الديوان ، فانهم يرسلون إلى الأقاليم ويستمر العمل حتى يعلم القائمون فيهم الكفاءة لإدارة البلاد (٧) ، وكانت الاجتماعات سرية والقصد منها البحث عن الوسائل المؤدية إلى تحسين حال الشعب وقطع دابر الفساد وتشجيع الزراعة (٨) .

(١) بيبير كريبيتس ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(٢) يوسف أضاف ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

(٣) تالف مجلس المشورة ، من كبار موظفي الحكومة والأعيان في القطر المصري حين يعقد المجلس مرة واحدة في السنة وكانت مهامه الأساسية محددة في الشؤون الإدارية والقضاء والأشغال العمومية ، انظر

عبد الرحمن الرافي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، ص ٥٧٢ .

(٤) عبد الرحمن الرافي ، عصر محمد علي ، ص ٦٠٩ .

(٥) أمين سامي ، المصدر السابق ، ص ٣٥٢ .

(٦) عبد الرحمن الرافي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، ص ٥٧٣ .

(٧) أمين سامي ، المصدر السابق ، ص ٣٥٢ .

(٨) بيبير كريبيتس ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

وقد نسبت إلى إبراهيم باشا فكرة ((البطاقات الشخصية)) التي يحملها الناس للدلالة على هويتهم ، فقد قرر مجلس المشورة برئاسة إبراهيم باشا باقتراح منه : ((ان يكون لكل فرد تذكرة مختومة بختم حكومة مصر تقدم عند خروجه من أبواب مصر ودخوله إليها ، عند انتقاله من بلد إلى آخر ، وان يحال تنظيم ذلك وترتيبه على الديوان الخديوي))^(١) ، واخذ إبراهيم باشا يطبق القانون الجديد الذي سنه والده ، وأصبح إبراهيم باشا على رأس الإدارة المدنية والعسكرية ، لا يمل من التفتيش على أعمال هذه الإدارة وكثيراً ما تراه مرتين أو ثلاثة في اليوم عند الخزانة يراقب أعمال موظفيها^(٢) ، ومن خلال تجواله وعمله الدؤوب رأى أن المحكمة لا تصلح في حالها للقضاء ، لذلك أمر بأعداد المقاعد وإعداد كاتب خاص ليدون محاضر الجلسات ، وإصدار الأوامر إلى جميع الإدارات ، وأكد على كتابة الحسابات بالطريقة المزدوجة وان تستخدم الأرقام الأوربية^(٣) ، فضلاً عن حرصه على تحديد أجور العمل وأوقاتها فيدفع للطفل ثلاثين بارة ولمن يشتغلون بحفر الأرض والسائقين ورؤساء العمال والأقوياء من العمال أجوراً متوسطة قرشان في اليوم^(٤) .

وجاء في تقرير القنصل الروسي (**Pezzoni**) ، الذي عين قنصلاً لروسيا في مصر بعد دروفتي (**Drovty**) فقد بلغ رئيسه في ٢٥ اب (أغسطس) ١٨٣٠ بعد ان أصبح إبراهيم باشا على رأس الإدارة المدنية والعسكرية إذ أوضح قائلاً : ((إن السجن فقد غصت بالمدينين البائسين ، زجهم إبراهيم باشا لأنهم عجزوا عن وفاء دينهم))^(٥) ، وكما جاء في التقرير ((يخشى الناس في مصر إبراهيم وترتعد فرائصهم فزعا إذا سمعوا اسمه ، وتشعر الدوائر القنصلية بان هذا الخوف قد يرفع عن كاهل الأهلين شيئاً مما يعانونه من ظلم المديرين ، وحكام الأقاليم ، ان يلم

(١) عبد الرحمن الرفاعي ، عصر محمد علي ، ص ٦٠٩ .

(٢) بيبير كريببتس ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٦ .

بنجيتهم من هذا الظلم كله))^(١) ، ولا شك أن طبيعة الحكم المصري لبلاد الشام (١٨٣١ . ١٨٤٠) كان تجربة ناجحة للحكم المركزي ، مهد الطريق أمام العثمانيين بان يعيدوا النظر في سياستهم السابقة في الولايات العربية ، كما سجلت لإبراهيم باشا إنجاز أعمال جلييلة في سوريا منها التسامح والمساواة بين الطوائف المختلفة ، وهي الروح التي اتسم بها الحكم المصري في سوريا^(٢) ، مما شجع البعثات الأمريكية والفرنسية على افتتاح مدارسها ومعاهدها في أقسام البلاد المختلفة^(٣) .

أولى إبراهيم باشا الجانب الاقتصادي اهتماما واضحا ولاسيما في ، التجارة والصناعة فقد أظهر اهتماماً بالزراعة بشكل منقطع النظير منذ وصوله بلاد الشام تحت حكم الإدارة المصرية^(٤) وعندما دخلت بلاد الشام تحت حكم الإدارة المصرية في ١٣ حزيران (يونيو) ١٨٣٢ شهدت تطوراً وتحديثاً في الإنتاج ، وأدخل كل ما هو جديد ومبتكر على أساليب الاستثمار الاقتصادي^(٥) وبدأت أولى أعماله بتحديد مقادير الضرائب التي تجبى من الفلاحين وأوقف الأبتزازات الإقطاعية عن طريق حل النظام الإقطاعي^(٦) ، ولعل أهم خطوة قامت بها الإدارة المصرية لتشجيع الزراعة ، هو إشاعة الأمن والنظام في البلاد وتشجيعها البدو على الحياة الاستقرار ، وتحويلهم مزارعين بعد ان كانوا يهاجمون الأراضي الزراعية وينهبونها^(٧) كما قام إبراهيم باشا بإنشاء البنك الزراعي ، في كل المدن الرئيسية في البلاد كمدينة دمشق وحلب وأدنه وعين

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

(٢) عبد العزيز محمد عوض ، الإدارة العثمانية في سوريا (١٨٦٤ - ١٩١٤) دار المعارف مصر ، ١٩٦٩ ، ص ٥٥ .

(٣) محمد رفعت ، المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٤) بيير كريبيتس ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٥) Mohamad sabry , Lempier Egyptien Sous Mohamad – Ali La Qastiond

orient ١٨١١-١٨٤٠ , Libraiva orentauste , Paris , ١٩٣٠ , P. ٣٦٦.

(٦) يوسف جميل نعيصة ، مجتمع دمشق ، (١٧٧٢ - ١٨٤٠) ، ج ١ ، ط ١ ، دار طلاس للدراسات والنشر ، دمشق ، ١٩٨٦ ، ص ٤٢ .

(٧) لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ ؛ Eukiri . OP . cit , P ٢٩٤ .

له صرافاً ، وقدم التسهيلات إلى المزارعين ، إذ اختلفت تقديم السلف من مرتبة لأخرى (١) ، وخلال المدة من ١٨٣٠ . ١٨٤٠ اهتم إبراهيم كثيراً في زراعة الحقائق والحقول ، كما جلب الكثير من الأشجار والخضر الأجنبية والمحاصيل النقدية (٢) ، واهتمت الإدارة المصرية بعد وصولها بلاد الشام بالتجارة إذ انتعشت وشهدت تطوراً كبيراً ، فقد أدت العناية الخاصة بالزراعة إلى نشاط التجارة بنوعيهما الداخلية والخارجية (٣) ، وامتازت سياسة إبراهيم باشا التجارية بعد ان أتاح للتجار الأجانب الدخول إلى الشام للإسهام في عملية البيع والشراء ، بعد ان كان نشاطهم التجاري في السابق يقتصر على بعض الثغور والموانئ الساحلية (٤) ، كما وضع حداً للتجاوزات التي قام بها التجار والقناصل (٥) ، ومن جانبه أيضاً شجع الصناعات الحربية ، التي تعد من أقدم أقدم الصناعات في بلاد الشام فتحسنت ووطرت طرق إنتاجها (٦) ، كذلك شجع الصناعات الصوفية ، وانشأ معملاً لنسيج الصوف في مدينة صور ، فحقق هذا المصنع الاكتفاء الذاتي لسكان تلك المنطقة (٧) ، وقامت الإدارة المصرية باستخراج بعض المعادن ، ولا سيما معدن الفحم الحجري في قرنايل (لبنان) وأرسل منها (٥٠٠) قنطار إلى مصر (٨) وفي سنة (١٨٤١) أبلغ مدير المصانع ان إدارة مصانع السبئية والمصنع الكبرى أصبحت تحت الإدارة المصرية بأشراف إبراهيم باشا (٩) ،

(١) داود بركات ، البطل الفاتح إبراهيم باشا وفتح الشام ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، د.ت ، ص ١٤٧ ؛ نادر العطار ، تاريخ سوريا في العصور الحديثة ، ج ١ ، مطبعة الإنشاء ، دمشق ، ١٩٦٢ ، ص ١٦٨ .

(٢) احمد احمد الحنة ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .

(٤) يوسف جميل نعيمة ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ، داود بركات ، المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٥) جوزيف حجاز ، أوربا ومصير الشرق العربي ، حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية ، ترجمة ، بطرس اطلاق وماجد نعمة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ١١٦ ؛ أمين سامي ، المصدر السابق ، ص ٤٥٣ .

(٦) احمد احمد الحنة ، المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٧) داود بركات ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ ؛ نادر العطار ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٨) محمد كرد علي ، خطط الشام ، الجزء الثالث ، ص ٥٧ ؛ محمد علي والسلطان محمد الثاني ، مؤلف مجهول ، مجلة مجلة المقتطف ، ج ١ ، مج ٦٧ ، بيروت ، ١٩٢٥ ، ص ٦٤ .

(٩) حيدر صبري شاكر ، المصدر السابق ، ص ٥٣ .

وحددت الإدارة المصرية الأسعار الخاصة بالمواد الغذائية كأسعار الحنطة ، لمنع تلاعب التجار والتزامهم بالسعر المحدد وتابع تنفيذ الأمر بنفسه (١) ، وألفت لجنة لذب الأغنام وبيع لحومها بأسعار مناسبة لهم أرغمت بئعي اللحوم على الإقتداء بها (٢) .

يتضح مما تقدم بان الجهود الكبيرة التي قامت بها الإدارة المصرية لتنظيم العملات والأسعار في البلاد ومحاولاتها الجادة في المحافظة على أسعار العملات من التقلبات وتحديد أسعار المواد الاستهلاكية لغرض التخفيف عن كاهل المواطن (٣) ، وفي متابعة لنشاطه العسكري ، تقلد إبراهيم باشا شؤون الجيش لمطاردة الوهابيين الوهابيين بأمر من والده ، وذلك في الخامس من أيلول (سبتمبر) سنة (١٨١٦) ، وقد ودع إبراهيم أسرته وكبار الحكومة ولم تتسى والدته ان تطبع قبله على جبينه ، وتقلده عقداً من الجواهر ، وطلبت منه ان لا ينزعه إلا في الحجرة النبوية الشريفة هديةً إلى الضريح الشريف ، فوعدها إبراهيم بالوفاء بذلك (٤) ، ونفذ إبراهيم تعليمات والده بعد ان كتب الله له النصر ، وأعلنت له المدن النجدية ولاءها، وعاد إلى القاهرة في التاسع من كانون الأول (ديسمبر) سنة (١٨١٩) ، فاستقبل بالحفاوة والتكريم (٥) ، وخلع السلطان العثماني عليه خلعة شرف مكافأةً له وسماه والياً على مكة (٦) ، وسارع إبراهيم باشا إلى زيارة ضريح المصطفى ﷺ في المدينة المنورة ، ووضع العقد الذي أهدته إليه والدته ، وتوجه بالدعاء والتبرك قائلاً : ((لقد أعانني الله باسترجاع البلدين المقدسين وجئت ضريحك الشريف متضرعاً متوسلاً أطلب النصر فيما أنا مقدم عليه من الحرب والكفاح)) (٧) .

(١) عيسى اسكندر المحلوف ، شذرات عن ابراهيم باشا ، مجلة المقتطف ، ٦٨ ، بيروت ، ١٩٢٦ ، ص ٥٥

(٢) ميخائيل مشاققة ، مشهد العيان لحوادث سوريا ولبنان ، مطبعة مصر ، ١٩٠٨ ، ص ١٢٥ .

(٣) بشرى ناصر هاشم ، المصدر السابق ، ص ٣٧ ؛ قسطنطين ميخائيلوفيش بازيلي ، سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم العثماني من الناحيتين السياسية والتاريخية ، ترجمة يسر منذر ، الطبعة الأولى ،

دار الحدائثة ، بيروت ، ١٩٢٨ ، ص ١٨١-١٨٢

(٤) ابراهيم جلال بك ، من يوميات الجبرتي ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٧٠ .

(٥) عبد الرحمن زكي ، التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٠ ، ص ٦٥ .

(٦) جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، ج ٢ ، مطبعة الهلال ، مصر ، ١٩٢٥ ، ص ١٦٥ .

(٧) احمد فؤاد الأهواني ، جوانب نفس ، ص ٥٠٧ .

وفي أواسط مايس (مايو) سنة (١٨٢٠) صدر فرمان سلطاني بتولي إبراهيم باشا إدارة جدة وولاية الحبشة ، وقدم المعونة لأخيه إسماعيل عندما تولى فتح بلاد السودان (١) . وكان غرضه الكشف عن مناطق الذهب المعروفة قديماً ، وجلب الرقيق ، وذلك في ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٨٢١ (٢) ، إذ واصل الأخوان زحفهما فقد زحف إسماعيل باتجاه النيل الأزرق ، أما ابراهيم فقد حال بينه وبين تنفيذ أغراضه مرضه الشديد فاضطر للعودة إلى مصر بعد وصول جيشه إلى دنكا (٣) .

ويتضح ان والده قد استخدم أسلوب الترغيب والترهيب في إقناع المصريين بأهمية الجندية ، وأنها لخدمة الدين الإسلامي ، وبذل في ذلك الجانب الشيء الكثير فأوامره لابنه ابراهيم ومديري الأقاليم تؤكد على عدم اتخاذ سبيل الإجبار في التجنيد (٤) .

وعلى وفق هذا التوجه تولى ابراهيم باشا إعداد الحملة في اليونان وقيادتها في منتصف شهر تموز (يوليو) سنة (١٨٢٢) إلى جزيرة المورة التي أعلنت ثورتها ولم يستطع الجيش العثماني إخمادها فاستتجد بالجيش المصري (٥) ، الذي استجاب لذلك بقيادة ابراهيم باشا الذي أدهشت انتصاراته الدول الاوربية ، واعترفت ببسالة الجيوش المصرية ، فتدخلت في الحرب لا سيما بريطانيا وروسيا ، وبعد مناوشات جرت بين الطرفين ، هُزم الأسطول المصري في موقعة نفارين سنة ١٨٢٧ واضطرت الدولة العثمانية على الاعتراف باستقلال اليونان استقلالاً تاماً سنة (١٨٣٢) (٦) .

(١) أمين سامي باشا ، المصدر السابق ، ص ٢٨٢ ؛ إدوارد اجوان ، المصدر السابق ، ص ٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٢) عبد الرحمن زكي ، ابراهيم باشا ، ص ٢١ .

(٣) عمر الإسكندري وسليم حسن ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، محمد صبري ، تاريخ مصر الحديث الحديث من محمد علي إلى اليوم ، الطبعة الأولى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، ص ٥٩ .

(٤) فوزي محمد سليمان عبيدات ، النظام العسكري في عهد محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٨) ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي ، ١٩٩٨ ، ص ١٣٠ .

(٥) عبد الرحمن زكي ، التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير ، ص ١٨٣ .

(٦) زاهية قدورة ، تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣١٦-٣١٧ .

ومن النشاطات العسكرية التي قام بها ابراهيم باشا في سنة (١٨٣١) الحملة المصرية على بلاد الشام فاحتل غزة ويافا وحيفا دون مقاومة ، وفي أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة ذاتها اقترب جيشه من عكا فسقطت بعد حصار دام (٦) اشهر دُحر العثمانيون وقدرت خسائرهم بـ (٤) آلاف أصابه بين قتيل وجريح واسير . (١)

وفي حزيران (يونيو) (١٨٣٩) خوله والده مهمة قيادة الجيش ضد العثمانيين الذين أخذو يعدون العدة ، والتقى الخصمان في نزيب (نصيبين) فانهمز الجيش العثماني ، وسرعان ما تدخلت الدول الأوروبية ، بعد ان هددت جيوش ابراهيم باشا العاصمة العثمانية واعلنت اتفاقها وابرمت من خلال ذلك معاهدة لندن (٢) ، واصدر ابراهيم باشا أوامره بالانسحاب واستكماله في ٣ شباط (فبراير) سنة ١٨٤١ (٣) . وكان يمضي كتاباته الرسمية تحت اسم الحاج ابراهيم والي جدة والحبشة وسرعسكر عكا ، ولكن بعد تحرير عكا وضع أمضاءه سرعسكر عريستان (٤) . هكذا

(١) عبد الرحمن زكي ، إبراهيم باشا ، ص ٥٢ ، محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٦٥ ؛ Joan Wucher King , Historical Dictionary of Egypt , The American University in Cairo Press , Egypt , ١٩٨٤ , P . ٦٠ .

(٢) أبرمت المعاهدة في لندن على اثر انتصار الجيوش المصرية على الدولة العثمانية في معركة نصيبين بقيادة ابراهيم باشا في ٢٤ حزيران (يونيو) ١٨٣٩ وقضت على قوة العثمانيين وتلاها تسليم الأسطول العثماني في الإسكندرية حيث اشترك في إبرام المعاهدة كل من بريطانيا وروسيا والنمسا والدول العثمانية للقضاء على قوة مصر العسكرية ولم تشترك فرنسا لأنها كانت تقر حكم محمد علي وجاء في المعاهدة يخول محمد علي وحلفاؤه حكم مصر وراثي ، احمد عطية الله ، القاموس السياسي ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٦٥ - ١٠٦٦ ؛ سليمان موسى ، الحركة العربية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٨ ؛ محمد صبري ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٣) محمد فريد وجدي ، دائرة المعارف القرن العشرين ، المجلد الأول ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٥-١٦-١٧ ؛ عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ص ٣١٠ .

(٤) ميخائيل مشاقفة ، منتخبات من الجواب على اقترح الأحزاب ، تحقيق أسد رستم وصبحي أبو شقراء ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ١١٣ ؛ اسكندر عيسى المعلوف ، المصدر السابق ، ص ٥٣

اكتملت خبرته ومواهبه الحربية فتجلت عبقريته واقترن اسمه فيها باسماء القادة الفاتحين (١).

وهذه بعض الشهادات التاريخية المسجلة لإبراهيم باشا ، اذكر ما ورد منها إذ قال عنه عبد الرحمن الرافي : ((إن أدق تعريف لشخصية ابراهيم باشا انه قائد الجيوش المصرية في حروب الاستقلال ، ولعمري ان قيادته لجيوش مصر في حرب استقلالها لهي اعظم ما يزين تاريخه ، إذ أن هذه الحروب هي التي حققت لمصر استقلالها)) (٢) .

وعلق محمد كرد علي على الحكم المصري في الشام وقال ((هذا هو الأنصاف في الحكم على حكومة ابراهيم باشا ، وما هي في الحقيقة إلا روح محمد علي الكبير الذي كان يستمد منه ابنه ، ولا يصد الا عنه في الخطوب ، وكان نموذجاً في الإدارة ، ولو أرادت الدولة العثمانية ان تستفيد من هذا الدرس لارادت عمالها على تطبيق خطط ابراهيم باشا في الإصلاحات التي قام بها خلال تسع سنين من حكمة)) (٣) .

كما أكد ذلك داود بركات الذي قال : ((حمل إبراهيم علم مصر عالياً من سنة ١٨١٤ إلى سنة ١٨٤٠ ، فما نكس بيده مرة واحدة بل رُفرف هذا العلم بيده ، والنصر معقوداً بأهدابه ، في الجزر اليونانية والأناضول وبلاد العرب وسوريا)) (٤) .

وقد عرف عن ابراهيم باشا كيف يصنع لنفسه امراً يشتهر به فبينما كان اغلب الفاتحين يتركون وراءهم الاضطراب والفوضى في البلدان المفتوحة ، بينما وجد ابراهيم باشا الوسيلة في ان يرسى في سوريا أسس الوحدة المركزية والإدارة المدنية (٥) ، وكان

(١) عبد الرحمن زكي ، ابراهيم باشا ، ص ٦ .

(٢) عبد الرحمن الرافي ، عصر محمد علي ، ص ٣٥٤ .

(٣) بولس مسعد ، في غمار المعارك ، ص ٥٣٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣٠ ؛ عبد الرحمن زكي ، ابراهيم باشا ، ص ٨٩ .

(٥) H . D . E Vaujany , op . cit . , p . ٣٨٩ .

ابراهيم باشا تحركه الرغبة في بناء النظام وإشاعة السلام ، فقد قرر كسر شوكة جميع العناصر التي تثير الاضطراب (١) .

وقال المستر كامبل قنصل بريطانيا في مصر في رسالة بعث بها إلى اللورد بالمرستون (٢) Palmerston رئيس وزراء بريطانيا بتاريخ ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٣٥ : ((إن اسم ابراهيم يفعل في نفوس الناس السحر)) (٣) .

هكذا كانت صورة ابراهيم باشا عند أصحاب السياسة ، أما الكاتب الفرنسي أدوار جوان فقد تحدث عن بطولة ابراهيم باشا والحكم على مواهبه إذ قال : ((انه من سلالة أولئك الإبطال الذين لا يقفون في ساحة الحرب إلا إذا جندلتهم المنون ، فمثله كمثل الاسكندر الأكبر وجنكيز خان)) (٤) .

وقال عنه الجنرال فيجان (٥) ، ((جمع ابراهيم باشا إلى مواهبه الطبيعية المدهشة ثقافة قوية جداً ، سار من نصر إلى نصر ، وازداد نبوغه في الفنون العسكرية كما ارتفعت قيمة الجيش الذي سلمه الوالي إلى عهده)) ، كما علق قنصل النمسا في عكا انطوان كتافاكو (Antown Katafako) قائلاً : ((إن جميع من في سوريا كانوا قد ملؤوا ظلم الحكم الماضي ، واصبحوا متشوقين لرؤية الجيوش المصرية ليحكموا بحسب النظام والعدالة والمساواة التي اشتهر بها محمد

(١) Sabry , op . cit . , p . ٣٤٣ .

(٢) هنري جون كامبل بالمرستون ، هو رجل دولة بريطاني خدم كوزير خارجية ورئيس للوزراء ، واصبح وزيراً للشؤون الخارجية في سنة ١٨٣٠ باستثناء فترة قصيرة ، وشغل المنصب حتى سنة ١٨٤١ واصبح وبعد غياب خمسة سنوات عاد مرة أخرى للدائرة الخارجية ودعم تركيا ضد روسيا بلمرستون رئيس الوزراء في سنة ١٨٥٥ وعاصر حرب القرم ، واستقال سنة ١٨٥٨ .

The new Encyclopaedia Britannica , volume , ٩ . , p.٩٤ , ١٥th Edition , founded , ١٧٦٨ .

(٣) جميل خانكي ، أعلام النهضة الحديثة (ابراهيم باشا) ، ص ٦٠٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٠٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

علي ، ولكنهم لم يروا من ابراهيم باشا سوى مظاهر المرؤة والحلم والشهامة وهي خصال شخصية تدل على أخلاق راقية)) (١) .

وذكر عن شاهد عيان ان ابراهيم باشا سار يوماً في ضواحي الشام متكرراً فقابله أحد الباعة المتجولين والذين يحملون بضاعتهم على أكتافهم ويبيعونها ويستبدلون بها الدجاج أو البيض وما إليها ، فترجل واقتبل على الرجل يستوضحه شانه ثم قال له : ((ألا تخاف ان تسير وحدك في البرية وأنت اعزل فقد يسطو عليك اللصوص وقطاع الطرق !)) (٢) فقال الرجل وهو لا يدري ان محدثه ابراهيم باشا ((لا يا أفندي كيف أخاف وأبو خليل موجود في البلاد)) ، فتبسم ابراهيم باشا وودع الرجل وانصرف (٣) .

وحول طموح ابراهيم باشا ، تحدث بعض المؤرخين الفرنسيين ومنهم بارو (Barrow) حين قال في هذا الجانب بعد سقوط عكا : ((سأنتقل إلى حدود البلاد والتي تتكلم باللسان العربي)) (٤) .

وعندما وقعت أحداث معركة نصيبين (٥) في حزيران (يونيو) سنة (١٨٣٩) ، وفي تمام الساعة الحادية عشرة ليلاً وجهت المدفعية العثمانية بنيرانها نحو معسكر ابراهيم باشا ، فسقطت اثر ذلك القنابل حول موقع قيادته ، غير ان ابراهيم باشا وسليمان باشا أحد أركان قاداته اتخذ للأمر حيلة وقاما بتهيئة الجند

(١) جميل خانكي ، أعلام النهضة الحديثة (ابراهيم باشا) ، ص ٦٠٣ .

(٢) بولس مسعد ، في غمار المعارك ، ص ٥٢٣ .

(٣) مصطفى الشهابي ، في ضيافة الملوك ، مجلة الكتاب ، ج ٩ ، ص ٦ ، السنة الثالثة ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ٥٦٦ .

(٤) نسيب وهيبة الخازن ، أمينة عربية ، مجلة الكتاب ، ج ٩ ، ص ٦ ، السنة الثالثة ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ٥٣٥ .

(٥) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيرة جل والإسكندرية ، وتقع في الأراضي العثمانية لكنها على مسيرة ساعات قليلة من الحدود التركية السورية ، أما نزيب فهو تحريف أجنبي أو تركي لنصيبين ونزيب لا توجد إشارة لها في المرجعيات الخاصة بالمواقع والأماكن ، عبد الرحمن الرفاعي ، عصر محمد علي ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

والاستعداد للقتال (١) ، وقد سجل انتصاراً واضحاً بمؤازرة سليمان الفرنساوي (سيف) وبهذه المناسبة كتب ما يأتي : ((كنا جنديين نتبادل التهئة بالفوز وكان سليمان باشا يحث الضباط ليلة المعركة ، ويقول : ((أيها السادة الضباط اني أعين لكم زمان الملتقى ومكانه غداً في ساعة الزوال تحت خيمة حافظ باشا كي نسقى القهوة إن شاء الله)) (٢) .

ومن الأعمال التي أوكلت إلى سليمان الفرنساوي في الشام مراقبة شؤون الأجانب ، فحاول ضبط هويتهم وامر بتطبيق قوانين التجوال المتبعة في البلدان الأوروبية ، ففرض على الأجنبي وجوب اتصاله بقنصليته للتأشير على جواز سفره لدى وصوله إلى بر الشام ، ومثوله أمام السلطات المحلية للحصول على هوية يبرزها عند الطلب (٣) .

توالت الحوادث على الحكم المصري في بلاد الشام ، فعندما جاءت الجيوش البريطانية إلى صيدا فرّ ابراهيم باشا إلى الجبل ، وكان الكومودور تاييه قد سار في قوات بحرية بريطانية لمحاصرة بيروت التي كانت تحت قيادة سليمان الفرنساوي ، وقد سمع ان ابراهيم باشا قتل ، وتشتت قواته ، وعندما رأى نفسه وحيداً منفرداً ترك المدينة وفرّ ، فاستولى عليها البريطانيون ، وبعد ذلك اتصل به ابراهيم باشا واوصاه بالثبات أمام العدو (٤) ، ولكن الدول الأوروبية الممثلة بريطانيا والنمسا وروسيا والتي وضعت خطة مشتركة لضرب محمد علي واعادة الحكم العثماني على الولايات التي ضمنها محمد علي إلى إمبراطوريته ، وعقد معاهدة لندن بخصوص ذلك (٥) ، وعندما سافر ابراهيم باشا إلى أوروبا في شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٤٥ لغرض المعالجة على اثر نزلة معوية ، كان برفقته سليمان الفرنساوي ، وكانت سفرتهم إلى

(١) عبد الرحمن الرفاعي ، عصر محمد علي ، ص ١٣٠ .

(٢) أدوار جوان ، المصدر السابق ، ص ٧٥١ .

(٣) أسد رستم ، إدارة الشام روحها وهيكلها وأثرها ، ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ، ص ١٢٣ .

(٤) جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٥) داود سلمان العزاوي ، العلاقات العراقية المصرية ، من فجر الحضارة حتى الحرب العالمية الأولى ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ٢٢٦ .

كل من ايطاليا وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا ، ومن الطريف انه عندما وصلوا إلى فرنسا استقبلهم ملك فرنسا لويس فيليب وقال لسليمان الفرنساوي : ((أجدك المركيز دي سيف ؟) فقال سليمان الفرنساوي : ((لا يا مولاي ان والدي كان صاحب مصنع في ليون)) فأجاب الملك : ((ان ذلك مما يزدك شرفاً ونبلاً))^(١) ، وبقيت ذكرى هذا القائد للمصريين خالدة حتى انهم أطلقوا اسمه على أحد شوارع القاهرة الرئيسة^(٢).

في سنة ١٨٣١ احتل المصريون الجبل ، واستغل بشير الشهابي شعور المسلمين عن طريق مشروع إنشاء إمبراطورية عربية بعد طرد العثمانيين ، إذ تحمس المسيحيون لذلك وقد سمعوا بالمعاملة الطيبة التي كان يتلقاها إخوانهم المسيحيون في مصر من قبل محمد علي والى مصر^(٣) ، وكان الاعتقاد السائد بان الغزو المصري سيحرر العرب ، إذ كان إبراهيم يشعر مسبقاً وقبل وصوله بعلائم الترحيب كبطل للتححر العربي^(٤) ، وقد تمثل الأمير الشهابي تقلبه في سياسته تبعاً لمصلحته ، إذ كان انتهازياً في دينه وله وجهان : وجه إسلامي يقابل سلطانه ودولته ، وآخر نصراني مستتر يواجه به المسيحيين في بلاده^(٥) .

ومن الذين عاصروا إبراهيم باشا ووقفوا معه موقفاً مسانداً ، هو الأمير بشير الشهابي^(٦) ، وهو اكبر الأمراء الشهابيين في لبنان ، وكان قائداً شجاعاً ومحكماً^(١) ، وساعده الأيمن في تحريره لسوريا ولبنان^(٢) .

(١) مصطفى الشهابي ، في ضيافة ، ص ٥٥٩ .

(٢) فيليب حتي وآخرون ، تاريخ العرب ، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٤ ، ص ٨٢١ .

(٣) سليم نفاع ، علاقات لبنان الخارجية في عهد الأمراء الشهابيين ، مجلة الأبحاث ، ج ١ ، السنة الثانية عشر ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٨٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(٥) محمد جميل بيهم ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٦) بشير الشهابي (١٧٦٧ - ١٨٥٠) ولد بقرية غريز قرب بيروت ، واتصل بأحمد باشا الجزائر والي صيدا ، وولاه أمانة لبنان (١٧٨٨ - ١٨٤٠) وقد آزر ابراهيم باشا عند حملته على الشام ، ولما استعادت الدولة العثمانية حكم سوريا قبض البريطانيون عليه ونفوه إلى مالطة سنة ١٨٤٠ ، عبد الوهاب الكيالي ، المصدر السابق ، ص ٥٤٤ - ٥٤٥ ؛ ملحم قربان ، تاريخ لبنان السياسي الحديث ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٥٨ .

ومما يذكر ان محمد علي طلب من الأمير الشهابي ان يرسل له كميات من الخشب التي يحتاجها في صناعة السفن ، علماً ان جبال لبنان الشرقية اشتهرت بوجود مساحات كبيرة من الغابات المتمثلة بأشجار الشربين والسنديان (٣) ، لكن عبد الله باشا منعه من ذلك وعدّ الأمير الشهابي مخالفاً لأوامر الدولة العلية العثمانية (٤) .

لذلك جدّد محمد علي حملة بقيادة ابنه ابراهيم باشا عن طريق البر والبحر مع جنوده إلى بلاد الشام (١٨٣١-١٨٤٠) ، وقد وقف الأمير بشير بتقديم التسهيلات والمعونة من الجيش لقائد الحملة ابراهيم باشا ليساعده في توطيد الحكم في الساحل السوري وذلك من عكا عبر حدود القدس إلى ما وراء بيروت (٥) .

وخول ابراهيم باشا الأمير بشير الشهابي السلطة المطلقة في لبنان ، فحصل على جبل في بادئ الأمر ، وانتهاز بعد ذلك الأمير الفرصة في تعزيز مركزه لدى محمد علي وابنه ، فنشر سلطته في البلاد وعززها على الجبل خاصة (٦) .

وكان الأمير الشهابي قد نفذ خطوات الإدارة المصرية في القضاء على الإقطاعيين من مقدمين ومشايخ ، الذين كانت الدولة العثمانية تستخدمهم لعزله ، تارةً ولإرجاعه تارةً أخرى (٧) ، ونتيجة للسياسة التي اتبعها ابراهيم من ضرائب

(١) ملحم قريان ، المصدر السابق ، ص ٦٩ ؛ البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨ - ١٩٣٢) ، ط٤ ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ٨١ .

(٢) محمد جميل بيهم ، عروبة لبنان تطورها في القديم والحديث ، دار الريحاني للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ ، ص ١٦٠ .

(٣) محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني ، مجلة المقتطف ، المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٤) جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ص ١٦٨ ؛ نادر العطار ، المصدر السابق ، ص ١٦١-١٦٢ .

(٥) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ، الجزء الثاني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٣٤١ ؛ ميخائيل مشاققة ، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، تحقيق ملحم عبود واندراوس حنا ، مصر ، ١٩٠٨ ، ص ١٢٣ .

(٦) هاشم ياغي ، من ملامح المجتمع اللبناني الحديث ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ، ص ٢٥ .

(٧) بشرى ناصر ، المصدر السابق ، ص ٦٥ .

وسوء معاملة في سوريا وجبل لبنان فقد أدت إلى إثارة الأهالي في مواقع مختلفة من سوريا ، كثورة فلسطين في سنة (١٨٣٤) ، وثورة العلويين في نفس السنة ، وكان الأمير الشهابي في كل المعارك مسانداً ومؤزراً لإبراهيم باشا (١) .

وحين عمد ابراهيم باشا إلى التفريق بين الدرزي والمسيحي في طلبه التجنيد العام ونزع السلاح ، اوهم المسيحيين انهم سيعفون من تسليم السلاح ، فثار الدروز ، أما الأمير بشير آزر ابراهيم باشا كعادته ، وجمع أربعة آلاف من نصارى جبل لبنان ووجههم لمقاتلة الدروز ، فكانت السابقة الأولى في قيام الطائفية (٢) . وحصرت سلطة الأمير بشير الشهابي في منطقة جبل لبنان ، ومنح الاستقلال الداخلي في مقاطعته ، التي قسمت بدورها إلى عشرين مركزاً يحكم كل مركز منها أمير من عائلته (٣) ، وفي مدة انشغال إبراهيم باشا بالعمليات العسكرية ضد الدولة العثمانية في سنة (١٨٣٢) أمر إبراهيم ببقاء الشهابي الكبير في المعسكر نيابةً عنه ، لادارة مصالح البلاد المدنية ، وتقديراً للخدمات الجليلة التي قدمها الشهابي ، وهيبته ومكانته في البلاد ، أمر محمد علي باشا بجعل الأمير محافظاً على المدن الساحلية ، وان يترك مطلق الحرية في إرسال المتسلمين من أقاربه (٤) .

لم تكن لإبراهيم باشا خطوات لتجنيد أهل جبل لبنان ، على الرغم من إصدار التصريحات العديدة ، والتأكيدات المتتالية حتى يعيد الهدوء إلى الجبل ، وتسكن نائرة أهله (٥) ، واستمر الأمير بشير على ولائه وطاعته للإدارة والى محمد علي وابنه ابراهيم باشا حتى الوقت الذي رجحت كفة الحلفاء الذين أعطوا له مهلة للاستسلام ،

(١) هاشم ياغي ، المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

(٣) بشرى ناصر ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٤) انطون كتافاكو ، فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية ، ترجمة وتعليق بولس قرالي ، مطبعة القديس بولس ، لبنان ، ١٩٣٧ ، ص ٤٥-٤٦ ؛ مؤلف مجهول ، حروب ابراهيم باشا في سوريا والأناضول ، تحقيق أسد رستم ، ج ١ ، المطبعة السورية ، مصر ، ص ٢٣ .

(٥) عبد العزيز سليمان نوار ، وثائق أساسية في تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧-١٩٢٠ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٣٢٠ .

إلا ان الأمير أصر على موقفه المساند للإدارة المصرية ، حتى أيقن ان البلاد متفقة على خلع طاعة محمد علي ، فاعلن في الحادي عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٤٠ استسلامه (١) .

وعلى الرغم من الضغوطات التي واجهها من جانب بريطانيا ، ورغم ما عانت القوات المصرية في الشام من تفكك ، بقي بشير الشهابي موالياً لإبراهيم باشا (٢) ، وجاء في كتاب السفارة البريطانية في اسطنبول إلى بشير الشهابي دعوة إليه بالانفصال عن حليفه ابراهيم باشا ، على اثر الحوادث الخطيرة في لبنان ، وان يعود إلى طاعة السلطان العثماني فيفوز بأمانة لبنان مدى الحياة (٣) .

واخيراً اضطر الأمير إلى التنازل لمندوب الدولة العثمانية في صيدا ، وجاء من بعده الأمير البشير الثالث (٤) .

يظهر من ذلك ان الأمير بشير الشهابي حركته المصالح الخاصة كي يثبت نفسه صاحباً وصديقاً لوالي مصر وابنه ابراهيم باشا ، وثبت في حكمه لجبل لبنان ، بالإضافة إلى تخويله في مهام أخرى ، وبالمقابل استطاع محمد علي وابنه ابراهيم ان يجدا لهما حليفاً في بلاد الشام في سبيل تثبيت مركزهم في الشام .

ومن الأمور التي شغلت إبراهيم باشا عندما تولى الحكم في سوريا هي توحيد شعب سوريا ، بإزالة الفوارق الدينية ففتح أبواب دمشق للأوروبيين ، وكان دخولها محرماً عليهم ، وقرر المساواة بين المسلمين واليهود والنصارى (٥) .

ولم يكن إبراهيم باشا قد اشتهر بصلابته وتفوقه في القتال فحسب ، بل انه قد اشتهر أيضاً بصلابته بالعدل بين الناس ، حتى بات اليوم مضرب المثل بالعدل في

(١) فيليب حتي ، مختصر تاريخ لبنان ، ترجمة فؤاد جرجيس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢١١ .

(٢) عبد العزيز سليمان ، المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .

(٣) ريتشارد وود ، الأمير بشير الشهابي ، مجلة أوراق لبنانية ، الجزء الأول ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٣٥ .

(٤) يوسف الحكيم ، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٢ .

(٥) داود بركات ، المصدر السابق ، ص ١٤١ .

بلاد الشام التي حكم فيها تسع سنوات ، فلم يكن الحاكم العسكري فقط ، بل كان العسكري المصلح التي بقيت آثاره هناك إلى اليوم (١) .

وهكذا أعطى ابراهيم باشا انطبعا حسناً عن كفاءته وخبرته الإدارية والمالية ، فقد أنجز مشروع القناطر الخيرية ، وحسن المواصلات ، ونشر التعليم وطبق إجراءات صحية لوقاية البلاد من الأوبئة (٢) ، وعني بوضع المشروعات العمرانية موضع التنفيذ ، وبتقوية الحدود المصرية وحصنها وقلاعها وتجديد قواتها الحربية (٣) ، لأنه كان يتوقع محاولة عثمانية لاستعادة السيطرة الفعلية على مصر (٤) . ولم يدم حكمه لعرش مصر سوى سبعة اشهر وثلاثة عشر يوماً (٥) ، غير ان المنية عاجلته في العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (١٨٤٨) على اثر نوبة قلبية فتوفى عن عمر ناهز التاسعة والخمسين (٦) ، ولم يطل حكم ابراهيم باشا فقد توفي قبل والده في سنة (١٨٤٨) ودفن في مقبرة الأسرة الخديوية بجوار الشافعي ، ثم توفي والده محمد علي باشا بعد ذلك بتسعة اشهر ، يوم الخميس الثاني من اب (اغسطس) سنة (١٨٤٩) ، واصبح عباس باشا بن طوسون بن محمد علي والياً على مصر (٧) .

وهكذا خدم ابراهيم باشا مصر طيلة نفوذه الإداري والعسكري (٨) ، ويتضح من ذلك انه عاش جندياً وقائداً مطيعاً لأبيه ، وملماً بالهمم والتجارب ، ومنذراً نفسه وضميره لإيمانه بأرض مصر ، ومع هذا سجلت عليه بعض السلبيات، وما الثورات التي قامت ضده في بلاد الشام إلا رداً على مثل تلك السلبيات ، ولكن على الرغم من

(١) بولس مسعد ، في غمار المعارك ، ص ٥٣٠ .

(٢) عبد الكريم غرابية ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٣) جميل خانكي ، أعلام النهضة الحديثة (ابراهيم باشا) ، ص ٦٠٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٠٢ ؛ ابراهيم أفندي ، المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٥) جميل خانكي ، أعلام النهضة الحديثة (ابراهيم باشا) ، ص ٦٠٢ .

(٦) خليل مردم ، أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٢١ .

(٧) عبد الرحمن الرفاعي ، عصر محمد علي ، ص ٦٧٣ ؛ عبد الكريم غرابية ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

(٨) جميل خانكي ، أعلام النهضة الحديثة (ابراهيم باشا) ، ص ٦٠٩ .

ذلك تعلق الناس به (١) ، حتى زين تمثاله أحد ميادين القاهرة ، تخليداً لدوره في إنشاء الإمبراطورية المصرية التي امتدت حدودها من ريف مصر إلى فيافي السودان ، إلى صحاري جزيرة العرب ، إلى بطاح فلسطين ، وإلى مشارق سوريا وجبال لبنان ، وإلى هضاب الأناضول وإلى سواحل المورة في اليونان وجزيرة كريت (٢) ، وعرفانا له فقد سمي النيل الأبيض باسمه كما سماوا النيل الأزرق باسم أخيه إسماعيل بن محمد علي (٣) ، ولما احتفل حفيده المغفور له فؤاد الأول بالعيد المئوي لاستيلاء جده ابراهيم باشا على قلعة عكا سمي احد شوارع القاهرة باسم ابراهيم باشا ، وسمي ميدان الأوبرا باسم ميدان ابراهيم أيضاً ، كما أقام ابنه إسماعيل تمثالاً لأبيه ابراهيم باشا في قلب العاصمة (٤) .

(١) Asad j . Rustum , the Royal Archieves of Egypt and the origins of the Egyptian Expedition to Syria , American university of Beirut , ١٩٣٦ .P.٣٣ .

(٢) جميل خانكي ، أعلام النهضة الحديثة (ابراهيم باشا) ، ص ٦٠٩ .

(٣) عزيز خانكي ، رياحين ، ص ٥٧٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٧٨